من ظرفاء العصر العباسي :

١ ـ أبو العينـــاء*

١٩١ ٢٨٣ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

« في هذا العالم الزاخر بالمتناقضات عرش للهزل كعرشه للجد ، استوى عليه أبو العيناء منذ بلغ أشده حتى رد إلى أرذل العمر ثمانين »

بقي أبو العيناء معروفاً بهذه الكنية منذ اشتهر بين أهل عصره حتى انطوت حياته الطويلة الطريفة . أما اسمه فهو محمد بن القاسم الهاشمي بالولاء ؛ لأن جده خلاداً كان من رقيق اليمامة ، وكان مولى لأبي جعفر المنصور ؛ فقد روى الخطيب في (تاريخ بغداد) عن محمد بن صالح بن النطاح مولى بني هاشم أنه قال : « حدثني أبي قال : طلب المنصور رجالا ليكونوا بوابين له . فقيل : إنه لا يضبط هذا إلا قوم لئام الأصول ، أذلال النفوس ، صلاب الوجوه ، ولا نجدهم إلا في رفيق اليمامة . فكتب إلى السري عبد الله الهاشمي — وكان واليه على اليمامة — فاشترى له مائتي غلام من اليمامة ، فاختار بعضهم فصيرهم بوابين ، وبقي الباقون فكان ممن بقي خلاد جد أبي العيناء[1] ... »

ويبدو أن القاسم بن خلاد والد أبي العيناء لم يطب له المقام في بغداد ، فولى وجهه شطر الأهواز بخوزستان ؛ فكان مولد ابنه في كورة من كورها سنة إحدى وتسعين ومائة بعد نكبة البرامكة بسنوات ، وقبل وفاة الرشيد بسنتين : فأبو العيناء قد تم الرضاعة حين بويع للأمين بالخلافة بعد وفاة أبيه في طوس ، وأضحى في السابعة من عمره لدى مقتل الأمين ، ونشأ أحول العين مخضوباً بالحمرة خضاباً ليس بالمشبع ، فامضى في الأهواز سنوات من طفولته ، ثم انتقل منها إلى البصرة فأمضى فيها بقية حداثته وكل شبابه وجانباً من كهولته ، في عصر المأمون الذي دام عشرين عاماً ؛ فأصبح أبو العيناء في ربيعه السابع والعشرين ، ثم في عصر المعتصم الذي بقي ثمانية أعوام فأضحى أبو العيناء في السادس والثلاثين ، ثم في عصر الواثق بالله الذي ظل خمسة أعوام فجاوز أبو العيناء حدود الأربعين . وبومذاك اعتلت عيناه فأمسى بعد حوله أعمى بعد مغادرته البصرة إلى دار الخلافة ليقضي فيها أكثر من نصف عمره الطويل .

كان ذكي القلب ، حميز الفؤاد ، قوي الذاكرة ؛ فساعدته هذه المواهب على الإقبال على طلب العلم في صغره ، فحفظ القرآن وتعلم الفرائض ، وتوفر على دراسة العربية ، وبرع في حفظ الروايات والأخبار ، حتى أن الدارقطني روى عنه « أنه أتى عبد الله بن داود بن عامر الهمداني الخريبي[2] وهو صغير ليحدثه فقال له : تحفظ القرآن ؟ فقال : قد حفظته . قال : تعلم الفرائض؟ قال : قد حذقتها . قال : فتعلم العربية ؟ قال : تعلمت منها ما فيه كفاية ، فامتحنه في كل ذلك فأجاد . فقال لو كنت محدثاً أحداً في سنك لحدثتك[3] »

وهذه القصة قد رواها الخطيب في تاريخه بأطول من هذا وأوضح (ص ١٧٢ ج ٣) وهي إن دلت على شيء فأول ما تدل عليه تصوير صادق لاستعداد أبي العيناء الفطري الذي يؤهله

(*) أهم مراجع هذا البحث : معجم الأدباء لياقوت الحموي . تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي ، لسان الميزان للحافظ ابن حجر العسقلاني .

أملاك الدولة الصهيونية . وليعلم أنها منذ الآن في أيدي الصهيونيين ، والأقمى الرقطاء لا يزال جسمها رابضاً في روسيا ، ولا يزال ستالين يجهل أن اليد التي تحركه هي يد الصهيونية (إذا لم يكن ستالين نفسه صهيونياً) ، وقد يخلف ستالين (بعد عمر طويل) على عرشه صهيوني يدير دولة صهيونية تابعة للدولة الصهيونية العليا ، وحينئذ تتلقى موسكو أوامرها من تل أبيب .

هل يعلم ستالين هذا أم لا يزال من الجاهلين المغرورين .

وليعلم المغفلون الأمريكي والانكليزي والأوروبي على العموم أن الخوف ليس من الشيوعية (الشيوعية ليست الاشتراكية ، بل هي صورة أخرى للصهيونية) وإنما الخوف من هذه الشيوعية التي تنطوي أذيالها على الصهيونية . فعلى دول الغرب إن كانت تريد أن تتقي شر الشيوعية أن تقطع رأس الأفعى الصهيونية قبل أن تنفث سمومها في أرض عيسى ومحمد المقدسة .

نفولا الحداد

(١) تاريخ بغداد ص ١٧١ ج ٣ طبعة مصر .

(٢) نسبة الى محلة سكنها بالبصرة تسمى خريبة ، توفي سنة ٢١٣ هـ

(٣) لسان الميزان ص ٣٤٦ ج ٥ طبعة الهند .

جماع الحديث وروايته ، لولا صغر سنه وحداثته . وإن ضن بربي على الفتى بتحديثه صغيراً فإنه لم يعدم وسيلة للتشجيع ؛ فوجد متنفساً لرغبته ، وإرضاء لنهمه في كتابة الحديث وطلب الأدب لدى أبي سعيد الأصمعي ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي زيد الأنصاري ، ومحمد بن عبد الله العتبي ، وأبي عاصم النبيل ، الذين كان لهم أكبر الأثر في توجيه حياته العلمية(١)

وفي عهد طلبه للعلم على أبي زيد الأنصاري لحقت به كنيته الشهورة « أبو العيناء » ، فقد سأله رجل : « كيف كنيت بالعيناء ؟ قال : قلت لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري : كيف تصغر عيناً ؟ فقال : عُيَيْنا يا أبا العيناء فلحقت بي منذ ذاك (٢) » .

وقد لاحظت — بعد طول البحث والتنقيب — أنه كان منصرفاً إلى العلم الانصراف كله قبل أن يجاوز الأربعين من عمره ، لم يحاول الاتصال بالخلفاء والأمراء ، ولم يتكسب بالشعر والرواية كما كان يتكسب في عصره أمثاله من الرواة والشعراء . فلكن اتفاقاً أنك ان تقرأ له خبراً واحداً أو نادرة واحدة تتصل بقصر الخلافة ؛ لا في أواخر عهد المأمون ولا في شيء من عهد المعتصم . لم يكن ليحول دون ذلك سكناه بالبصرة ؛ فقد كان في مكنته أن يغادرها حين يشاء إلى دار الخلافة عن طواعية واختيار ؛ بيد أنه انتظر الأقدار حتى أخرجته من منشئه إخراجاً ، يوم نكبة في أواخر أيام الواثق فحمل على أثرها إليه ، فاتصل عفواً بابن أبي دؤاد الذي كان له نفوذ في الدولة كبير . روى أبو العيناء عن نفسه قال : « كنت في أيام الواثق مقيماً بالبصرة ، فكنت يوماً في الوراقين بها إذ رأيت منادياً منفلا في يده مصحف مخاق الأداة فقلت له : ناد عليه بالبراءة مما فيه — وأنا أعني به أداءه — فأقبل المنادي ينادي بذلك . فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادي فقالوا له : يا عدو الله ! تنادي على مصحف بالبراءة مما فيه ؟ أوقعوا به . فقال لهم : ذلك الرجل القاعد أمرني بذلك . فتركوا المنادي وأقبلوا إلي وتجمعوا علي ورفعوني إلى الوالي فحملوا علي محضراً ، وكتب في أمري إلى السلطان . فأمر بحملي

(١) تاريخ بغداد ص ١٧١ ج ٣ .
(٢) الرجع السابق ص ١٧٢ .

لخمسمائة مستوثقاً مني . واتصل خبري بأبي عبد الله بن أبي دؤاد ، فتكفل بأمري والفحص عما قرفت به ، وأخذني إليه فقلك وثاقي ؛ وتجمعت العامة وبالغوا في التشنيع علي ، ومتابعة رفع القصص في أمري ، فقلت لابن أبي دؤاد : قد كثر تجمع هؤلاء الهمج علي وهم كثير . فقال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . فقلت : قد بالغوا في التشنيع علي فقال : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) . فقلت : إني على غاية الخوف من كيدهم ، ولن يخرج أمري عن يدك . فقال : (لا تحزن إن الله معنا) . فقلت : القاضي — أعزه الله — كما قال الصموت الكلابي :

لله درك — أي جنة خائف ... ومتاع دنيا — أنت للحدثان
متخمّط يطأ الرجال بنعله ... وطأ الفنيق دوارج الروان(١)
ويكبهم حتى كأن رؤوسهم ... مأمومة تنحط للغربان
ويفرّج الباب الشديد رتاجه ... حتى يصير كأنه بابان

قال : يا غلام ! الدواة والقرطاس ... أكتب هذه الأبيات عن أبي عبد الله . فكتبت له ، ولم يزل يتلطف في أمري حتى خلصني » (٢)

ولم يأسف على فراقه البصرة ؛ « إذ وجد ماؤها أجاجاً ، ووجد حرها عذاباً ، ووجدها تطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم » كما وصفها للخليفة المتوكل لما سأله : ما تقول في البصرة يا أبا العيناء ؟

لا ، لم يأسف على فراقها لولا أن الشقاء هجم عليه ، وأن الدهر قسا عليه ، فأخذ نور عينيه !

يومئذ بكى على البصرة وضيائها ، ونقم على بغداد وظلامها . يومئذ عرف قيمة البصر بعد أن فقد البصر !

ولكن الصولي — كما في تاريخ الخطيب — يحدثنا عن أبي العيناء حديثاً لا يخلو من طرافة يصف به الباعث على رحيله عن البصرة ، فإنه روى عنه أنه قال : « سبب تحولي من البصرة أني رأيت غلاماً ينادي عليه بثلاثين ديناراً يساوي ثلاثمائة دينار فاشتريته . وكنت أبني داراً فأعطيته عشرين ديناراً لينفقها على الصناع ، فأنفق عشرة واشترى بعشرة ملبوساً له ! فقلت : ماهذا ؟

(١) المتخمط : الرجل الغلاب الذي لا يطاق . والفنيق : الفحل الكريم ، ودوارج الفرون : ما درج من الهوام .
(٢) تاريخ بغداد ص ١٧٣ ج ٣ .

فقال : لا تعجل ، فإن أرباب المروءة لا يعتبون على غلمانهم هذا . فقلت فى نفسى : أنا اشتريت الأصمعى ولم أدر ! ثم أردت أن أتزوج امرأة سراً من بنت عمى ، فاستكتمته ودفعت إليه ديناراً يشترى له حوائج وسمكا هازبا (١) فاشترى غيره ، فقاطنى .. فقال رأيت بقراط يذم الهازبا ! فقلت : يا ابن الفاعلة لم أعلم أنى اشتريت جالينوس ... فضربته عشر مقارع ، فأخذنى وضربنى سبعاً . وقال : الأدب ثلاث يا مولاى ، وإنما ضربتك سبعاً قصاصاً . فرميته فشججته ، فذهب إلى بنت عمى وقال : «الدين النصيحة» و «من غشنا فليس منا» إن مولاى قد تزوج واستكتمنى فقلت : لا بد من تعريف مولاتى الخبر ، فضربنى وشجنى ! فتمثى بنت عمى دخول الدار ، وحالت ما بينى وبين ما فيها ، وما زالت كذلك حتى طلقت المرأة وسمته بنت عمى (الغلام الناصح) فلم يمكنى أن أكلمه فقلت : أعتق هذا وأستريح ... فلما أعتقته لزمنى وقال : الآن وجب حقك علىّ . ثم إنه أراد الحج فزودته ، فغاب عشرين يوماً ورجع وقال : قُطع الطريق ، ورأيت حقك قد وجب . ثم أراد التزوج فجهزته ، فلما غاب بعت ما لى بالبصرة وخرجت منها خوفاً أن يرجع » (٢)

وهذا الحديث الطريف نقله عن الخطيب ياقوت فى (معجم الأدباء) وابن حجر فى (لسان الميزان) على اختلاف فى الألفاظ يسير ، وهو — فى جملته أو تفصيله — لا يعتبر تعليلا لتحول أبى العيناء من البصرة كما هو الواقع ونفس الأمر ، وإنما هو تعليل لتحوله منها كما شاء هو أن يصوره بأسلوب المتهكم ، وعرضه الساخر ، فى رواية الأخبار .

— ٢ —

وكنت أود أن أصل الكتابة بتحليل نفسية هذا الظريف ودراسة أطواره من خلال آثاره — بعد أن عرّفت بمولده ونشأته ، ومقامه وانتقاله — لولا أنى وقفت أمام نص فى معجم الأدباء ، يدور حول عمى أبى العيناء ، فدارت حوله فى نفسى عوامل شتى من الشك والارتياب . يفيد هذا النص « أن جد أبى العيناء الأكبر كان يلقى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فأساء مرة المخاطبة بينه وبينه ، فدعا عليه بالعمى — له ولولد من بعده — فكل من عمى من ولد أبى العيناء فهو صحيح النسب فيهم ! » .

لا أكتم القارىء الكريم أنى ما إن قرأت هذه الرواية حتى شممت رائحة الوضع فيها ، فقلت فى نفسى : إنها لا تخرج عن أحد أمرين : إما أن راويها المعاصر لأبى العيناء الناقم له بر باختلاقها النيل منه والتعريض به ؛ إذ كان له ولدان أبو جعفر وعبد الله ، وكلاهما كان بصيراً غير أعمى ؛ فهما إذاً دعيان لا يعد نسبهما من أبيهما — وفى هذا قذف صريح فى أبى العيناء — وإما أن بعض العلويين المتشيعين الكارهين له الناقمين منه أذاعوا بين الناس لا على سبيل النافلة ولكن على سبيل المعلوم ؛ كانت تبدر منه أحياناً كلمات مقذعة فى المتشيعين .

هذا ما جاء فى نفسى بادىء الرأى ... إلا أن رواية شديد الشبه بالنص السابق — فى تاريخ الخطيب — قد أراحتنى من الشك الطويل ، وجعلتنى من تغيير حكمى بسبيل ، لأن النص الواقعى أى تعليل . يقول أبو العيناء نفسه فى هذه الرواية الجديدة : « دخل المنصور جدى خلاداً - وكان مولاه — فقال له : أريدك لأمر قد همنى وقد اخترتك له ، وأنت عندى كما قال أبو ذؤيب الهذلى الكنى إليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحى الخبر

فقال : أرجو أن أبلغ رضا أمير المؤمنين .

فقال : صر إلى المدينة على أنك من شيعة عبد الله بن حسن وابذل له الأموال واكتب إلىّ بأنفاسه وأخبار ولده . فأرضاه ثم علم عبد الله بن حسن أنه أتى من قِبله ، فدعا عليه وعلى نسله بالعمى . قال أبو العيناء : فنحن نتوارث ذاك إلى الساعة(١)! »

فقد اتفقت هاتان الروايتان فى تعليل عمى أبى العيناء ، بدعاء مستجاب شق حجب السماء ، وإن اختلفتا فى شخص الداعى أهو على بن أبى طالب أم عبد الله بن حسن ؟ وفى شخص المدعو عليه أهو جد أبى العيناء الأكبر أم جده القريب خلاد ؟

ونحن إذا سلمنا بأصل الفكرة المنتزعة من الروايتين نعود من جديد أمام أمرين : إما التصديق بهذه الواقعة — عمى أبى

(١) نوع من السمك ، ويعد فيقال : هازباه أيضا . وهو هنا من وصف الجنس بالنوع .

(٢) تاريخ بغداد ص ١٧٧ ج ٣ ولسان الميزان ص ٢٤٥ ج ٥ .

(١) تاريخ بغداد ص ١٧١ ج ٣ .

العيناء استجابة للدعاء — على أنها مصادفة تلاقت مع الواقع ، وما أكثر ما يتلاقيان ! وإنما اتهام هذا الظريف نفسه باختلاق القصة من أساسها وإذاعتها بين الراغبين في سماع أخباره العجيبة ، ونوادره المبتكرة ، فرواها هو بلفظ ورواها العامون بلفظ آخر ، وتداولتها الألسن لتكون دليلا صريحاً على تمكن ملكة الكذب من نفسه ، وسيطرتها على لسانه ، فإني — كما سترى من قريب — ما عرفت لساناً أحب إليه الكذب من لسانه ، ولا نفساً أرضى بما تختلق من نفسه !

وقد ترى غير ما رأيت ، فتفرض أمراً ثالثاً وهو أن الرواية الأولى موضوعة ، وأن الثانية على أبي العيناء مدسوسة ، لولا أنك بهذا الفرض تتهم ياقوتاً الحموي بوضع ما لا غرض له في وضعه ، ثم ترمي الخطيب البغدادي بقلة تحريه وضبطه ، مع أنه الحافظ المشهور الذي أجمع علماء الحديث ورجال الجرح والتعديل على قبول آثاره ، ورواية أخباره .

وكيفما عللنا سبب عمى أبي العيناء ، فسنوافق على قوله قبل عماه ، وسنؤيد المبرد في روايته عنه « أنه إنما صار أعمى بعد أن نيف على الأربعين وخرج من البصرة واعتلت عيناه فرُمي فيهما بما رمى . ثم يستدل المبرد على ذلك بقوله : والدليل على ذلك قول أبي على البصير .

قد كنت خفت يد الزما ن عليك إذ ذهب البصر
ولم أدر أنك بالعمى تغنى ويفتقر البشر !

والخطيب في تاريخه روى هذين البيتين بضمير المتكلم الجمع (كنا نخاف من الزمان ... الخ البيت الأول . لم ندر أنك الخ البيت الثاني) ونسبهما إلى أحمد بن أبي طاهر (١) . وهما — على كل حال — علامة نستأنس بها في أن عمى أبي العيناء كان طارئاً في كبره ، ولم يكن في الولادة ولا في صغره . ويؤيد هذا محاورة ابن أبي دؤاد لأبي العيناء يوم سأله : « ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ قال خلتان ، يبدؤني قومي بالسلام ، وكنت أحب أن أبتدئهم ، وإني ربما حدثت المرض عني وكنت أحب أن أعرف ذاك فأفطم عنه حديثي ! قال ابن أبي دؤاد : أما من ابتدأك بالسلام فقد كفاناه بحسن النية ؛ وأما من أعرض عن حديثك فما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر مما وصل إليك من سوء اجتماعه ! »(١)

ويزيدني اطمئناناً بصحة ما ذهبت إليه أن ليس لدينا دليل واحد على أن أبا العيناء عمي قبل الأربعين — فضلاً عن أنه ولد أعمى . والخطيب وابن حجر — وإن كانا قد أوردا خبر عماه بصيغة التمريض — إلا أنهما لم يحددا زمناً لعماه قبل هذه السن ولا بعدها . ثم إنه ليس ضرورياً أن نفهم من عبارة أبي العيناء في رواية الخطيب « فنحن نتوارث ذلك — أي العمى — إلى الساعة » أن كل من تناسل من هذه الأسرة يقضي عليه قانون الوراثة بأن يولد أعمى ، فإن الوراثة — كما يصح أن تكون مباشرة — يمكن أن تفعل فعلها بعد زمن يطول أو يقصر : فلنا إذاً أن نطمئن إلى رواية المبرد — في هذا الموضوع — ثم لنا أن نحكم بحول أبي العيناء قبل عماه من الروايات الكثيرة المتضافرة التي نذكر منها على سبيل المثال محاورة لطيفة دارت بين أبي العيناء ومحمد بن خلف بن المرزبان .

قال أولهما للثاني : « أتعرف في شعراء المحدثين رشيداً الرياحي قال محمد بن خلف : لا . قال أبو العيناء : بل هو القائل فيَّ :

نُسبت لابن قاسم مأثرات فهو للخير صاحب وقرين
أحول العين والخلائق زين لا احولال بها ولا تلوين
ليس للمرء شائناً حول العيـ ـن إذا كان فعله لا يشين

فقال ابن خلف : وكنت قبل العمى أحول ؟ أفتن السقم — إلى البلى ! فقال أبو العيناء : هذا أظرف خبر تعرج فيه الملائكة إلى السماء اليوم . ثم قال : أيما أصلح ؟ من السقم إلى البلى أو حال العجوز — أصلحها الله — من القيادة إلى الزنا ؟ » .

هذه رواية معجم الأدباء ، وشبيهة بها — مع اختلاف في اللفظ يسير — رواية تاريخ بغداد (ص ١٧٥ ج ٣)

والمحاورة فيها إذا ختمت بالدعابة ، فقد بدئت بأقوى مظاهر الجد ؛ لأن الفخر كان وما يزال حديث النفس . وحديث النفس كان وما يزال مستمداً من أعماق الشعور ، والشعور كان وما يزال حاسة الواقع : فليس بغريب أن يستمد فخور بنفسه كأبي العيناء من واقعه وممن نظرة الناس إلى واقعه مدعاة إلى الاعتزاز والتعالي

(١) تاريخ بغداد ص ١٧٤ ج ٣

(١) المرجع السابق ، الصفحة ذاتها . وتجدها في معجم الأدباء أيضاً